الشباب المسلم: التحديات والفرص والتوقعات

حرره: فوزة أحمد، محمد صدّيق سدّون

مراجعة: جون ماتوش

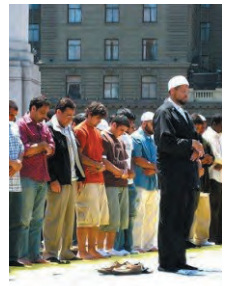

عندما كانت المسيحية أكثر تغلغلًا في بريطانيا منها اليوم، كان الكهنة من أصحاب النوايا الحسنة يديرون نوادي للشباب توفر لهم طاولات كرة المضرب (التنيس) جنبًا إلى جنب مع مواعظ الكنيسة؛ لإبقاء الشباب على مسار مستقيم ضيق بعيدًا عن المغريات الدنيوية: هذه النوادي نادرًا ما كانت تلقى إقبالًا مفرطًا، وكانت محاولاتها أن تكون وثيقة الصلة بالشباب دائمًا عرجاء. هذه الأيام هناك قلة صغيرة جدًّا من الشباب البريطاني تقبل على الكنيسة بانتظام، بينما الشبان البريطانيون المسلمون يُرجح أكثر منهم بكثير أن يتلقوا تعليمًا دينيًّا في أيام نهاية الأسبوع، والمسلمون الأكبر سنًّا بدورهم هم من يحاولون إبقاء أبنائهم ضمن جماعتهم الدينية.

في العقود الأخيرة، ازداد تعداد المسلمين عبر الكوكب على نحو كبير، ولهذا التعداد السكاني ملامح فتية لافتة، حيث أغلبيتهم تحت سنّ الـ25 عامًا. هذه الديموغرافيا الفتية واضحة مقارنة بالملامح العمرية للمواطنين الآخرين في الدول الغربية التي يشكّل المسلمون بها أقلية. وكما يشير محرِّرا هذه المجموعة من المقالات، هؤلاء الشباب المسلمون أصبحوا مؤخرًا أهدافًا للشك والعداء، بينما فرصهم ضئيلة في الدفاع عن أنفسهم في نقاش عام أو في تعزيز وجهات نظرهم وآرائهم: «لقد كُتب الكثير عن مسائل تتصل بالشباب المسلم، لكن القليل نسبيًّا من هذه الكتابات من إنتاج الشباب المسلم أنفسهم» (ص2). لكن مؤتمرًا عقد في 2009 بجامعة تشستر البريطانية، سعى لاستدراك هذا الاختلال بجمع أكاديميين متنوعين وشباب عاملين وأعضاء في مؤسسات محلية وقومية لطرح هذه القضايا، التي قد تواجه أجيال المسلمين الأحدث، وبخاصة أولئك الشبان الذين يعيشون في بلاد هم بين أقلياتها الدينية.

صنفت الأوراق المنتخبة من هذا المؤتمر تحت أربعة عناوين: أولها «الشباب المسلم: التفاوض في سياقات محلية وعالمية» يتلوه «الهوية والانتماء» ثم «التعليم ووسائط الميديا الجديدة» وأخيرًا «منهجيات الاشتباك». تشير هذه العناوين إلى تنوع نطاق الموضوعات والقضايا التي تغطيها هذه المجموعة من المقالات، وهو نطاق متنوع بحيث يأمل المحرِّران أن يتيح للمؤلفينَ الإجابة عن أسئلة: «... مثل: ماذا يريد هؤلاء الشباب؟ لماذا يتصرفون على هذا النحو من السلوكيات؟» (ص2). هذه الأسئلة طموحة ومطروحة دائمًا. فالشباب من جميع الأديان وبدونها عرضة للتشكيك في سلطة الوالدين، وتجريب هويات جديدة، وتذوق ثمار محرمة اجتماعيًّا، وهو الطحن المعتاد بمرحلة البلوغ، بالطبع لدى نموهم واكتشافهم شخصياتهم تستقر رؤاهم وسلوكياتهم. لكن، في مجموعة المقالات هذه، يتجاهل المؤلفون هذه الحقيقة الدنيوية بينما هم يبرزون الكلمة الثانية في عنوان 'الشباب المسلم' محاججين بأن هؤلاء الشبان—بخلاف

زملائهم الكفار— يواجهون أزمات إضافية نظرًا لوضعهم كأقلية دينية.

يبدو من المفترض، ربما ليس مفاجئًا نظرًا لمعتقدات المؤلفينَ أنفسهم، أن الشباب المسلم المضطرب سيكون بحاجة إلى توجيه وتعليم إسلاميين تحديدًا لمساعدتهم في الانتقال نحو الرشد، وإن كانت المسألة قيد المواجهة لا تمتّ للدين بصلة مميزة. فمثلًا، نرى بحسب أحد المؤلفين المساهمين، لدى مواجهة مسائل تتصل باستهلاك الكحول والمخدرات أنَّ «...من صميم الموضوع أن نبدأ باستكشاف كيف يعالج القرآن والسنة النبوية هذه المسألة تحديدًا...» (ص259)، رغم أن مبرر كون هذه نقطة البداية ليس مفسرًا، وتقترح مناقشة الكحول والمخدرات في هذا المقال فإن المؤلف لم يدرك أن التحريم غير فعّال، ولم يلاحظ أن معظم الشباب الذين يجرّبون الكحول والمخدرات لن يتعاطوها في سن الرشد. السؤال الذي نريد الإجابة عنه ليس كما يقترح المحرّران: «لماذا يتصرفون بهذه الطرق من السلوكيات؟» (ص2)، بل بالأحرى لماذا بعض الشباب المسلم، دون غيرهم، يتصرفون بطرق معينة؟ هذا هو السؤال الذي لا نملك الإجابة عنه بخصوص أي مجموعة من الشبان، ولا نتوقع إجابة له من خلال القواسم المشتركة للجماعات، مهما كانت دقة تصنيف الجماعة. فمثلًا، في أغسطس/ آب 2011، عندما عاث الشبان البريطانيون فسادًا في موجة عربدة من العنف والفوضى أدّت إلى إصابات وأضرار وتدمير الممتلكات وأُلقِيَ القبض على أكثر من 3000 منهم، هُرع العديد من نقاد وسائل الإعلام لشرح هذا الحدث المفزع من حيث الإخفاقات المجتمعية البريطانية الأوسع التي أدّت بالشباب إلى أعمال الشغب، لكن أيًّا من هذه التفسيرات المزعومة بحد ذاتها لم تفسر بصدقية: لماذا بعض الشباب، دون غيرهم، استثيروا نحو الشغب؟ كما لم تفسر لماذا كان البعض مستعدًّا للتحرك بشكل يتصف بالقسوة والإجرام أو بالقسوة والعنف؟ التحليلات القائمة على عضوية الجماعات، بناء على تعميمات جمعية، هي دائمًا وفي أحسن أحوالها، تقترح إشارات وليست ملزِمة.

القسم الافتتاحي لهذه المجموعة، «الشباب المسلم: التفاوض في سياقات محلية وعالمية» يضمّ مقالين حول الشباب المسلم البريطاني؛ وعوضًا عن «التفاَوض»، فالشباب المسلمون الرجال -الرجال فقط (!)-الخاضعون للدراسة يُقدمون كـ«عدميين متسلسلين» يرفضون الإسلام والغرب، أو كأرواح ضائعة معرضة لراديكالية حزب التحرير (الإسلامي). و في حين أن هذين المقالين يضمّان تبصرات تحليلية واعدة بجانب تفصيل على المحلي أو القومي، فإنّ قابلية تطبيقهما الأوسع نطاقًا تُبطها تفضيل المؤلفين لقياسات أو تعبيرات غامضة مثل: «شباب مسلم بريطاني كثيرون» (ص28)، «في نظر كثير من الشباب المسلم البريطاني» (ص40)، وتعبيرات مماثلة لا تتحدد كميًّا، ولا تعطي القارئ معنى حقيقيًّا حول مدى وعدد المسلمين الذين -مثلًا- تأثروا أو قد يتأثرون، بين 2.7 مليون مسلم بريطاني متنوعين بشكل بالغ. في الحقيقة، تنطوي مقالات كثيرة في هذه المجموعة على تبصرات تحليلية، تقف كفرضيات تحتاج بحثًا أكثر. بشكل واضح، هذه المخاوف المنهجية أقل أهمية بالنسبة للمقالات حول الهوية الذاتية وللمقالات حول الممارسة والجوانب العملية للعمل الشبابي، وكثير منه يوفر ملاحظات وتبصرات مثيرة للاهتمام وتقارير مشجّعة جدًّا لجهود تُبذل لمساعدة أولئك الأفراد من الشباب المسلم المكافح خلال الانتقال نحو الرشد.

هناك شكوى عامة يتقدم بها المسلمون الذين يعيشون في الغرب -أو تُقدَّم نيابة عنهم- تخص الصور التحقيرية النمطية غالبًا لهذه الكتلة السكانية بالغة التنوع؛ لذلك سيكون أي تحد لهذه الصور التي عفا عليها الزمن أمرًا منعشًا. إجمالًا، ومع افتقاد هذه المجموعة من المقالات للاتساق والأمان المنهجي؛ فإنها لا تجيب عن نوع الأسئلة التي طرحها المحرِّران في مقدمتها. ■